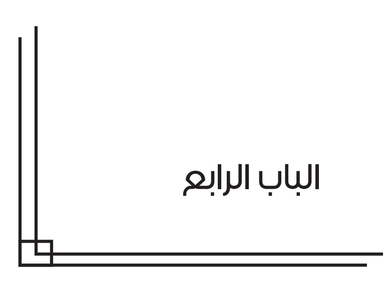


الباب الرابع

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الكتاب: الباب الرابع

اسم المؤلف: د. أحمد حسن جمعة

التدقيق اللغوي: محمود البكري

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٥٦٩٦ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٤١٠-٣-٥



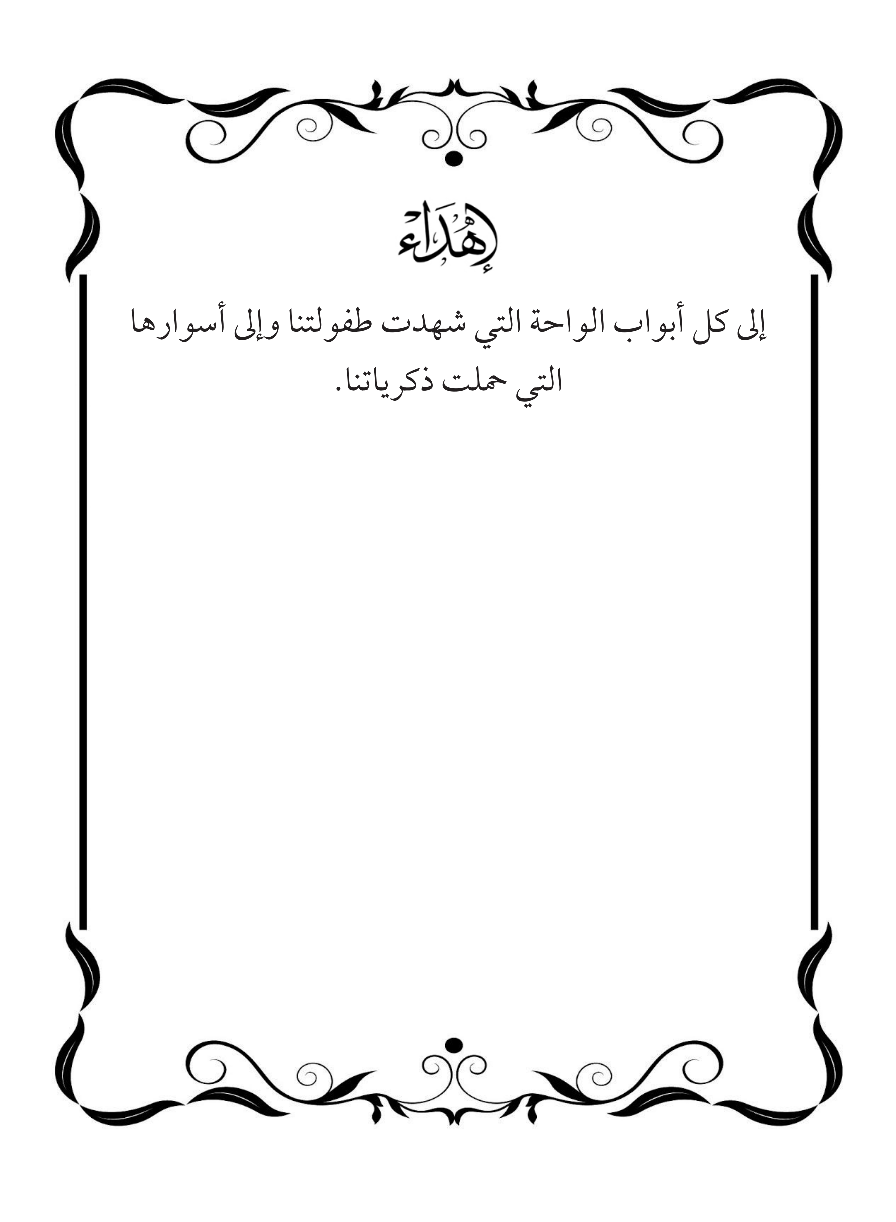

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639

massar.pub1@gmail.com

الباب الرابع

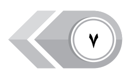




إِهْدَاءٌ

إلى كل أبواب الواحة التي شهدت طفولتنا وإلى أسوارها التي حملت ذكرياتنا.

غناء الجدة



كانت الشمس كمثيلاتها في مثل هذا الوقت من العام؛ تختفي خلف السحاب حتى يحسبها الناس لن تظهر. ثم تظهر وكأنها لن تختفي ثانية. جدتي في مدخل البيت تتحدث مع نفسها تدندن وهي تصنع طاقية من الخوص. ألتقط من كلامها غناء أفراح، أهازيج للحجيج، ورثاء للراحلين.

في مدخل البيت جلستْ وكأنها تذب كل روح شريرة عن دخول البيت، لم تعد ركبتاها تحتملان الجلوس على الأرض فأحضرت قفصا خشبيا جلست عليه وهي تضفر الخوص؛ تدس أصابعها طرف الخوصة بين مثيلاتها، تمررها في سرعة مرة فوق هذه ومرة تحت تلك، تعيد الكرة باليمين وباليسار وبين لحظة وأخرى تميل لتلتقط واحدة من الخوص من كومة بجوارها على الأرض لتكمل بها العمل.

تغيبت عن المدرسة لألم ببطني فذهبت إليها وجلست بجوارها قالت: إن رأس جدك لم يعد يحتمل الشمس بعد أن بدد الصلع شعره، ثم ضحكت وقالت: إن رأسه صغير في مثل حجم رأسك.

ووضعتْ الطاقية فوق رأسي تقيسها

قلت: إن جدي قد مات من زمن.

لم تكترث وأكملت ما تصنع وهي تغني:

"يا منجرش الطواقي يا بوي نجرشي لي طاجية

جلبي بيهوي البيض البيض والسمر حبايبيا "

في البيت المجاور يعلو عويل نساء وبكاء أطفال وهمهمات رجال يجهزون أنفسهم لغسل ودفن جارة عجوز توفيت صباح اليوم، بينما جدتي لم تتوقف عن غنائها وأهازيجها وعندما خرجت الجنازة ومرت من أمامنا رفعت سبابتي كما أرى الكبار يفعلون، وحركت شفتيَّ في صمت لا أعرف ماذا أقول، بينما جدتي لم تتوقف عن الغناء، وأخرجت مكحلة من تحت فخذها ووضعت طاقية الخوص بجوارها بعد أن انتهت منها، أخرجت المرود من جيب بجراب المكحلة وأخذت تكتحل وهي تغني:

"يا اما يا كحل العين شل أحوالي جتال أبوها اليوم يا جتالي"

خجلتُ مما تفعل وشعرت أن الجميع ينظرون إلينا.

لكنها قالت: إن جدك يحب أن يرى عينيَّ مكتحلتين، ثم ابتسمت كصبية صغيرة قبل أن تستدرك قائلة إنها تريد أن ترى كل شيء بوضوح.

رسمت خطين صغيرين بجانب عينيها الضيقة بعد أن امتلأ جفناها ورموشها بالكحل المصنوع من رماد فتيل غمس في زيت الزيتون. بعد أن انتهت الجدة كانت الجنازة قد مرت، أمسكت بطاقية الخوص والمكحلة، أخذتها ودخلت إلى البيت ولم تخرج ثانية.

الكلب الضال

لي كلب صغير أربيهُ، مغبرٌ لونه غير بقعة بيضاء بين عينيه وأخرى في بطنه، التقطته يدىّ من خلف أمه اللي تثاقلت في ليلة باردة لتضع وليدها بعد أن أغلقت البوابة، وبعد أن طلع النهار طاردها الأطفال حتى خارج القرية فتركت رضيعها وهربت.

للقرية سور عال تتخلله ثلاث بوابات، بوابة شرقية تؤدي إلى الحقول وبوابة غربية تفتح على جبانة القرية الواقعة خارج الأسوار وبوابة قبلية تفتح للحجيج في وقت الحج، تغلق البوابة الشرقية عندما تغرب الشمس فلا يخرج ولا يدخل أحد. في الليالي الصيفية نتسكع سوياً حتى سور القرية العالي، تبدو القرية خلفنا من بعيد والمصابيح خارج البيوت كعملاق يحمل مشعلاً كبيراً، تبدو كبيرة ومفزعة وهي قائمة على تلك التلة الكبيرة.

تبيت الكلاب الضالة خارج أسوار القرية، تطاردها عصى الأطفال وأحجارهم، يخاف أهل القرية على صغار الماعز والماشية أن يغير عليها كلب عقور. بعد فترة اعتادت الكلاب أن تدخل القرية متلصصة في النهار وتخرج منها عند غروب الشمس دون أن يطاردها أحد.

تغرب الشمس معلنة عن بدء ساعات الحظر الليلي للكلاب، يتسكع واحدهم على مشارف القرية يشمشم في جيفة لدجاجة، يدور حولها يركلها بقدمه قبل أن يحملها بفمه ويجري قبل أن تغلق عليه الأبواب ويصير حبيس الأسوار يطارده الساهرون من الأطفال والمتسكعون في الطرقات والخفراء وهم يحملون المصابيح يدورون في الأزقة.

كبر كلبي وطالت قوائمه وازداد عرض أكتافه وظهره، يلازمني جيئة وذهابا، يدور حول أغنامي، يزوم عليها عندما تشرد واحدة من القطيع لترجع إلى مكانها.

يكره كلبي الكلاب الضالة، يطاردها، يعلو نباحه عليها فتفر هاربة. بين مرة وأخرى يقف أمامه واحد منها يعلو نباحه هو الآخر، يلتف ليراني في ظهره فيستعيد رباطة جأشه ويعلو نباحه وزمجرته حتى يطرد الكلب الشريد ثم يرجع إلى يهز ذيله ويتمسح بي في فخار وزهو لألقي إليه بكسرة خبز يلتقمها في نهم.

في ذات ليلة ومن فرجة بالباب تسلل كلب طريد التقطته عينا كلبي فتحفز وبرقت عيناه، وطارد الكلب حتى خرج، ثم وقف أمام فرجة البوابة ينظر إلى وينظر للخارج ثم انطلق خارجا يعدو، علا نباح كثير بينه وبين المطاريد، ميزت نباحه يعلو ويعلو ثم ينخفض ويئن في ألم حتى انقطع صوته. بعد برهة عاد من نفس الفرجة في البوابة مطأطئ الرأس يعرج وقد امتلأ جسده بجروح وندبات. تهدمت الأسوار وسقطت البوابات ونزل أهل القرية من أعلى التلة ليسكنوا أسفلها ولم تعد القرية من بعيد في ظلام الليل ذلك العملاق الكبير، استحلت الكلاب الضالة القرية، جالت في شوارعها ليل نهار فلم يعد ما يخيفها، تحرشت بالأطفال وهاجمت صغار الماعز، بينما فر كلبي خارج القرية شريدا يتلصص الدخول إلى القرية بحثا عن كسرة خبز أو فرخ ميت يسد جوعه.

النّبة السوداء

لم ينم "سالم " ليلته تلك حتى أقبل النهار وسمع الناس يقولون إنها ربما ذهبت للتبة السوداء والتي قالوا إنه لم يعد أحد ذهب إليها أبدا، يعرفون طريقها لكن لا يجرؤ أحد المشي فيه، من ذهب إليها أعلنوا عليه الحداد واعتبروه من الأموات. يتبادل الناس الأساطير عن تلك التبة السوداء وكلما اختفى واحدٌ أعلنوا أنه لبى نداءها، وقالوا إنها المساخيط تسحر عقل الواحد منهم ليذهب بلا وعي، وعندما يصل إليها لا يعود، أرض التيه، أرض الخوف والموت.

ما بين أصوات حنين الجمال ورغائها مضت القافلة الصغيرة إلى واحة الداخلة، خمسة جمال محملة بجوالق مملوءة بالزيتون الأسود والمشمش المجفف، تحط رحالها لبضعة أيام قبل شهر رمضان، تبيع حاجاتها بدلا أو بالنقود لتعود أدراجها قبل بدء الشهر الفضيل.

يتوسط الجامع الكبير البلدة وخارج أبوابه يفترش الناس الأرض بعد الصلوات، يبيعون ويشترون ويتناقشون في أحوال الأرض والزراعة ويجلس مكاري بجوار بغلته ينتظر من يطلب توصيلة.

في السقيفة بالشارع الجانبي للجامع الكبير أنزلوا جوالق المشمش والزيتون وربطوا جمالهم واستعدوا للأيام التي سيقضونها قبل أن يعودوا برحالهم.

"سالم" هو أكبر رجال القافلة سنًا، يكاد يناهز الخمسين من عمره، يأتي كل عام مع القافلة، يعرف أهل البلدة وطرقها ويعرفه الجميع، يجلس في المكان الأقرب لباب الجامع، يرد سلام الداخل للجامع والخارج، يداعب الأطفال وهم يخرجون من المسجد بعد جلسات حفظ القرءان على يد شيخه.

حتى كان ذلك اليوم الذي أتت فيه تلك الفتاة تأخذ أخاها بعد إحدى جلسات حفظ القرءان، سرقت ناظريه عندما مرت أمامه، وقفت متنحية أمام باب المسجد حتى خرج، تابعها تمسك يد أخيها وهو ينتعل خفه قبل أن ينطلقا، هرول أخوها لاحقا بها فانسل خفه من قدمه فمال يعدله ليرتديه ثانية، بينما جالت ببصرها في القافلة حتى استقرت عيناها عليه وجدته يحدق بها فاحمر وجهها خجلا.

"دهب" كان اسمها، طفلة في العاشرة أو تكاد تناهزها، بعينين واسعتين وأنف مدبب وحاجبين كثين وذقن بطابع حسن وضفيرتين سوداوين تدلتا على كتفيها. حدق فيها "سالم" كثيرًا، رفرف قلبه عندما تلاقت أعينهما، أشاحت ببصرها بعيدا لكنه لم يرفع عينيه عنها.

في اليوم التالي منذ أصبح النهار وهو ينتظر مجيئها، عندما أقبلت من بعيد ساوره نفس الشعور الذي أحسه بالأمس، أخذت أخاها وانطلقت لكنها هذه المرة لم تلحظ تحديقه فيها. ظل ينتظرها كل يوم، ما الذي حدث يا سالم؟ لم خفقان قلبك بهذا الشكل؟ وكيف حركت الطفلة فيك كل هذه المشاعر؟ ولم هي؟ ولم الآن؟ زادت لهفته كل يوم في انتظارها وزاد خفقان قلبه كلما رآها، حتى كان اليوم الذي انتظر قدومها فلم تأت، أتم الناس صلاتهم وخرجوا من المسجد ووقف أخوها بجوار الباب ينتظرها.

تأخرَت !، اجتمع الناس على الطفل وزاد زحامهم حوله حتى أتى رجل عرف فيما بعد أنه أبوها، كانت" دهب" تلهو مع أقرانها في الحقول على أطراف البلدة حين اختفت، خرج الناس يبحثون عنها وخرج "سالم" معهم، ترك جمله وبضاعته وخرج، يفتشون عنها في كل مكان

حتى غابت الشمس.

في اليوم التالي خرجت البلدة كلها حتى رجال القافلة تركوا رحالهم وبضاعتهم وخرجوا يفتشون عن" دهب" في كل مكان إلا التبة السوداء، انتشروا على أطراف القرية في كل طريق وفي كل حقل لكن لا فائدة، بينما شوهد سالم واقفا على أول الطريق المؤدي للتبة السوداء يحدق في اللاشئ.

الباب الرابع

كان لا بد أن أصل قبل أن يطلع النهار فتفتح أبواب الأسوار وأصبح أنا الغريب محط أنظار الناس واستنكارهم وتحت سلطة الخفراء ورجال الشرطة.

من بعيد لاحت البلدة قائمة على التلة الكبيرة من خلف الأسوار القزمة وكانت المشاعل خارج البيوت تجعل البلدة تبدو كعملاق مخيف.

كان لابد أن أعود، لتلك العيون التي يوما سحرتني ولم أملك إلا أن ألبي نداءها.

عندما أظلمت بلدتي خرجت متسللا، تحت جنح الليل، قفزت الأسوار ومشيت في المدق الذي يربط بين بلدتي وبلدتها.

ذلك المدق الذي سرت فيه يوما مع القافلة محملين بجوالق المشمش المجفف والزيتون نبيعها في بلدتها قبيل شهر رمضان، كانت سماء الصحراء صافية ونجومها لامعة وبدر كبير يتوسط السماء وينير الأرض فيهديني في طريقي، أجري لدقائق، ألهث فأقف لالتقاط أنفاسي، وقلبي

الذي يكاد يطير من فرط المجهود ومن النشوة التي تملأني كلما قربت المسافة، كانت أقدامي تطوي الأرض طيا، الأميال التي كانت تقطعها الجمال في بعض يوم أقطعها في ساعة أو ساعتين.

بجوار السور وقفت كانت هيئتي الضخمة تجعله قزما، بالكاد توازي أعلى نقطة فيه كتفي، من فوقه أتبين مرابط الدواب، بقفزة رشيقة تخطيته ثم اختفيت في الظلام، بعد أن توقفت ماكينة الكهرباء الوحيدة فانطفأت المصابيح، كانت أقدامي تعرف طريقها في البلدة التي حفظت دروبها سعيا وراء قلبي.

رأيتها لأول مرة عند المرشح، مكان المياه النقية الصالحة للشرب الوحيد بالقرية، صهاريج للمياه تملأ من الداخل وصنابير في الجدار الخارجي تملأ منه القراب، كانت واقفة وكان زحام، تتردد في الاقتراب والبعد.

تلتف بملاءة سوداء ويظهر من دثارها وجه مشرق مستدير وذقن مسنون، عينان واسعتان تزينهما اهداب تتكاثف في الجانبين. وحاجبان سوداوان كثان، أنف صغير وشفتان مكتنزتان، حسن لم أرى مثله ابدا.

أقبلت عليها أعرض عليها أن أملا قرابها فرفضت في بادئ الأمر إلا أنها قبلت في آخره. أخذت قرابها فملأتها لها ثم انصرفت.

بجوار الورشة او مركز الشرطة كان سوق صغير، تأتي إليه كل يوم تضع خضارا في ماجور فخاري تبيعه، وكنا نضع بضاعتنا في السقيفة بجوار المسجد الكبير على مقربة منها، كنت آتي إليها يوميا أرقبها لساعات تلحظني فيها حتى إذا فرغت من بيعها حملت ماجورها وانصرفت.

كنت أعرف بيتها في الجهة القبلية من القرية، انتظرتها ذات يوم حتى إذا فرغت من بيعها في السوق تابعتها، كانت تعرف أني أمشي وراءها فتمهلت في خطوتها، أخذتُ أجاريها حتى كادت أكتافنا تتلامس، أنظر إليها وتنظر إلى وتبتسم، حتى إذا أقبل واحد في الطريق أسرعت في مشيتها وتركتني خلفها يكاد قلبي ينخلع من مكانه.

وحين وصلت إلى بيتها أطالت النظر طويلا ثم توارت داخل المنزل، قبل أن يلحظها أبوها من فوق سطح البيت ويراني، لأسمع صوته يعنفها ويزجرها قبل أن يمنعها من الخروج ثانية للسوق طوال أيام

القافلة حتى أتممنا بيعنا ورجعنا.

حين وصلتُ إلى بيتها كان الفجر قد لاح، خرج أباها لصلاة الفجر فاختبأت خلف شجرة كبيرة أمام بيت جار لهم وحين ابتعد اقتربت من البيت أسترق السمع للأصوات بداخله، أدور حوله، أفتش عن أي فرجة أراها منها أو أصل إليها، قبل أن تعلو أصوات الناس يصرخون:

-سارق، لص.

لم تصلح هيئتي الضخمة في ان تخفيني خيوط الظلام، ففضحتني أنوار الفجر الرمادية ولم تفلح أيضا أن تجعلني أتخطى الناس لأهرب منهم، استسلمت لأياديهم، فاجتمع على الخفراء واقتادوني إلى الورشة محل الشرطة. على بوابة خشبية كبيرة من بوابات سور البلدة ربطوني، أسندوا ظهري إليها مصلوبا كمسيح، ربطوا ذراعي وكبلوا قدميّ، كنت أعرف أن كبار البلدة في السقيفة الكائنة بجوار "المرشح" يناقشون أمر فتاتهم التي رأوها قد جلبت لهم العار والأغراب حتى بيوتهم.

بينما في "الورشة "كما يطلقون عليها كان رجال الشرطة يناقشون أمري أنا الغريب الذي لم يسرق ولم يقتل وإنما تخطى أسوار القرية في ظلام الليل، فلا تهمة تلحق بي ولا يستطيعون أن يتركوني وشأني.

مر عليّ النهار بطيئا وئيدا بلا طعام أو شراب، مصلوبا على ذلك الباب الخشبي حتى أقبل الليل وهدأت الأصوات، حين عم الظلام بالكاد حررت أقدامي بصعوبة من قيدها في ذلك الباب الخشبي لكن قيود يدي كانت محكمة فشلت في إخراجها، حاولت أكثر من مرة حتى أحسست بالباب كله يهتز من خلفي، وضعت أقدامي على الأرض وملت للأمام فانخلع الباب كله من الحائط خرجت من البلدة والباب على عاتقي.

مشيت على أطراف أصابعي، باب كبير يسري في ظلام الليل وحين ابتعدت عن سور القرية كنت أنظر إلى التلة الكبيرة والمشاعل المتقدة في كل مكان، أخذت أجري بلا راحة، تتشقق أقدامي من الأحجار والشوك والصبار فلا أتوقف خشية أن يفتضح أمر هروبي فيلحقوا بي.

قبل أن يطلع النهار كنت قد وصلت بلدتي، فكوا قيودي وحملوا الباب من على أكتافي، ضمدوا جراحي وعالجوا أقدامي، صنعوا فرجة بالسور المحيط بالبلدة ليضعوا الباب رابعا بالسور غير باب الحجيج وباب الجبانة وباب المزارع، بابا يفضي إلى المدق المؤدي لبلدة محبوبتي.

الشهيد الحي



لو دقق أحدهم لبرهة لعرف أن الرصاصة قد جاءتني من الخلف لم أكن أقاتل حين أصبت. عندما زاد الصمت خرجت أهرول، أفر بنفسي، أضع صورة زوجتي وأولادي أمامي وأهرب، سمعت صوت رصاصة خرجت من فوهة بندقية، لحظتها أحسست بشيء يخترق فخذي لكني لم أحس بألم، سقطت على الأرض وتدفق سائل دافئ من فخذي ثم راح الألم يقطع أوصالي.

زحفت على بطني أتفادي الرصاص حتى ألقيت نفسي ليلةً كاملة في خندق أسفل الدبابة المحطمة، أمضيت ليلتي في مخبأي مستلقيا على ظهري أنظر إلى السماء كما أنظر إليها الآن، سماء صافية ونجوم تتناوب اللمعة والخفوت، دخان يتصاعد متعرجا يخفي خلفه عوالم وشموس صغيرة، وصمت للحظات طويلة يقطعه صوت إطلاق نار أو دوي انفجار. وأحيانا صوت جندي يخرج من مكبر للصوت يصرخ فيه بلغة لا أعرفها ثم يتحدث بلغة عربية متلعثمة مطالبا الجميع بعدم المقاومة وتسليم أنفسهم.

ليس زهدا في الدماء أو ترفعا عن القتل، ألقيت سلاحي، لكنه حب الحياة، الهروب من الموت حتى وإن كان في سبيل عقيدة أو وطن.

وهل هناك فرق مع الوطن أن أموت أو يموت غيري، مجرد عدد يضاف لخانة أعداد القتلى، سينقشون اسمي على نصب تذكاري يتم زيارته كل عام من قبل مسئول كبير يؤدي التحية العسكرية ويضع إكليلا للزهور ثم يعود إلى بيته ليضاجع زوجته ويحتفل بعيد ميلاد حفيد له.

وفي قبري الذي سيضعون فيه أشلائي ولوحة عليها رقمي العسكري الخاص وكأنني كلب حراسة هل سأعرف أن هناك من زارني وترحم عليّ، هل ستصبر زوجتي على فراغ فراشها أم ستتزوج أول من يمطر آذانها بكلام معسول، هل سيذكر أولادي حين يكبرون ولا يجدون ما ينفقون أن أباهم مات لكي يعيشوا؟

في الصباح التقطتني دورية لنقل الجرحى، لثلاثة أشهر بقيت في مستشفى أتلقى العلاج، حين توقفت الحرب ولم أعد ارتدت والدتي السواد وأعلن أهلي الحداد ولعل زوجتي كانت قد استعدت لمعاشرة

غيري بعد أن تفرغ من عدتها، فأعلنوني في قريتي شهيدا ليستبدلوا اسمي فيما بعد بالشهيد الحي.

حين عدت معافى احتفى أهل القرية بي وجعلوني بطلا ونصبوا أنفسهم متحدثين عني يخوضون في بطولاتي وشجاعتي وأنا لم أحمل السلاح يوما إلا فارغا من الرصاص ويوم أن امتلأت خزانته رميته وهربت.

لم أكن يوما جبانا لكني كنت أجيد الهروب، أو لعلى أفضله، أرى فيه النجاة، هروب من كل شيء. هروب للصحراء من ضجر الحضر وزحامه وضوضائه. هروب لبعض أغنام أرعاها وترعاني. هروب من شكوك في مشاعر زوجتي تجاهي. لم أكن كأي بدوي يعرف سلاحه كما يعرف أطفاله، يحمل سلاحه بين طيات ملابسه خوفا من أن تغدر به الصحراء أو يلاحقه أي هائم. كنت أرى في الفلاة أمانا عن بني البشر ورفقتهم.

الآن أستلقي على ظهري فوق سطح البيت، تتزين السماء الصافية بالنجوم تتناوب في اللمعة والخفوت، واحدة هنا وأخرى هناك.

تميل شجرة الكافور الكبيرة على السطح لتخبئ خلف أوراقها عوالم وشموساً صغيرة، يتسرب هلال وليد بين أهدابها ويزحف بطيئا نحو زاوية من السطح.

تهب نسمة صيفية محملة برائحة أزهار المانجو تحرك أفرع الشجرة واوراقها لتصدر حفيفا هادئا، يهدأ الصوت ليتبعه نباح كلاب متتابع، يعلو شخير زوجتي متقلبة على جنبها داخل ناموسية مربوطة بأحبال مشدودة لقوائم بأركان السطح.

يعلو صوت مكبر معلق على سطح أحد الجيران، أسمع منه همهمة أطفال والرجل الذي يمسك الميكروفون -يكاد يبتلعه-صوته مغمغم لا أتبين من كلامه شيئاً، ثم تظهر أصوات رق وصاجات وطبلة صغيرة بينما منشد الحضرة يترنم:

(إيه العمل يا أحمد يوم طلعة المشهد).

أرفع طرف الناموسية أختبئ في حضن أولادي بينما في السماء الصافية سرب طيور بيضاء مهاجرة تختفي في الأفق البعيد.

وشم على الساق المبتورة

في الجبانة بجوار أحد القبور حفر عميقا وأودعها التراب دون أن يكون معه أحد، وبعد أن عاد قطع جذعا لشجرة من حديقة البيت ورسم عليه نفس الوشم الذي كان منقوشا على ساقه.

حكت لنا أمي قبل أن تموت أنه فقدها في الحرب، بينما انتشر بين أهل البلدة أنه فقدها في مدق للتهريب عبر الحدود جراء انفجار لغم أرضي قديم داس عليه بالخطأ وقبل أن يرفع قدمه كانت ساقه قد فارقته للأبد، بينما قال هو أنها تركته دون أن تستأذن.

لم يحزن عليها كثيرا لكنه حزن على وشم كان قد دقه عليها يحمل أول حرف من اسم والدتي.

حكى أهل البلدة أنه جاء حاملا ساقه في كيس بلاستيكي وهو يركب حمارا، شاردا، يصنع دمه خطا غليظا وراءه. كاد أن يفقد حياته لولا أن كوى طرفها بالنار ليوقف النزيف. أسبوعاً لم يخرج من البيت، بعد أن قاس ساقه السليمة أخذ يهذب الجذع بقدوم صغير، يشحذه

من حين لآخر، وبعد أن نقش الإسم في مكانه وضع الجذع مكان ساقه المبتورة، ثم لف طرفها العلوي بإطار كاوتشوك خفيف لدراجة قديمة ليثبته بفخذه، وألصق بالجذع تحت نهايته من أسفل رقعة كاوتشوك أخرى حتى لا تبرى أو تأكلها الأرض.

لم تكن تفارقه أبدا إلا عندما يغضبه أحد من إخوتي؛ يخلعها ويشير إليه وهو يعنفه، وعندما يضاجع زوجته الجديدة -كنا نعرف عندما نرى الجذع خارج غرفته. وحين يركب دراجته البخارية التي أضاف إليها زوجا من العجلات لتصبح أربعا.

يستند عليها ويمشي، يميل قليلا على الجانبين يأبى أن تنحني قامته وكلما تآكل جزء من ساقه الخشبية وضع رقعة من الجلد مكانها لتستعيد طولها. كان قد أوصى ألا يدفن مع ساقه حين يموت، وبعد أن حانت ساعته دخلنا عليه فوجدناه ممسكا بالساق الخشبية بين ذراعيه، فشلنا أن نفلتها منه فتركناها لتدفن معه.

السير عكس الاتجاه

لأول مرةٍ أدخل القاعة الكبيرة متنعلاً حذائي، لم يكن مسموحاً لأحد أن يدخل بيت العمدة في حذائه فما بالك بالقاعة الكبيرة، حتى شيخ الخفراء وكبيرهم لم يكن ليجرؤ على تلك الفعلة، لكن لم يكن أحد ليأبه في ذلك اليوم.

على الحائط المقابل لباب القاعة جلدٌ محنط لنمر كبير مثبتة أرجله بمسامير، وسيف مذهب معلق أسفله، بينما على الجهتين المتقابلتين صور لأجداد العمدة وأسلافه، وجوهٌ متجهمة وشوارب كبيرة، لم يكن أحد يرى الصور معلقة على الحوائط إلا في تلك القاعة.

وقفت أحدق في الصور مشدوها حين قطع شرودي دخول الخادمة "جليلة"، تلك السيدة البيضاء البضة تتقدم من الباب في تؤدة ترتدي جلبابا صيفيا خفيفا وتحمل صينية كبيرة عليها طعام، تفحصتها بنظراتي، لم تلحظ هي الأخرى دخولي القاعة بالحذاء، مالت لتضع الصينية على الطاولة فشف جلبابها الصيفي عن عجيزتها الكبيرة ثم انحسر بين ردفيها الكبيرين، انكشف أسفل ساقيها البيضاوين عن كعبين استدارا كتفاحتين شهيتين.

تلك العجيزة التي لم يستطع العمدة أيضا أن يقاومها، الكل في البلدة يعرف ما بينه وبينها ويتحدثون في خفاء، إلا زوجته أو لعلها تعرف لكنها لا تستطيع أن تفتح فمها بكلمة.

وضعت جليلة الطعام ورفعت رأسها لتستدير فتراني أحدق فيها وأفتح فاهي في بلاهة فعرفت أين وقعت عيناي، قطبت حاجبيها ومدت يدها لتحرر الجلباب من بين ردفيها، قبل أن تنظر في تأفف ثم خرجت.

تقع مندرة العمدة في أعلى التلة الكبيرة، تطل المندرة على القرية بينما يراها الجميع من بعيد شاهدة عليهم وكأنها ترقبهم في صمت، ثم يتوالى الوجهاء في السكن بالقرب منها على المنحدر حتى يكون عامة القرية في أسفل السفح، يقابلها في الجهة الأخرى تلة أصغر عليها جبانة القرية وبجوارها أجران القمح التي تم حصادها ووضعت فوق بعضها فكانت كأهرام الفراعين.

كانت العادة كل جمعة أن آتي إلي بيت العمدة بعد صلاة الظهر أقرأ سورة يس في القاعة الكبيرة، لا أحد يجلس يستمع إليّ، أتناول الغذاء وأمضي بعد أن قضيت اليوم كله في الجبانة من بعد الفجر أقرأ القرآن وأتلقى ما تجود به أيدي الناس من النقود والفطائر والتمور. لكن اليوم كان مختلفا، لم يلحظ أحد غيابي عن صلاة الجمعة، وهل يلحظ وجودي أحد أصلا، لولا الصمت المطبق على المقابر ما سمعني أحد وأنا أقرأ القرآن.

تلك القرية التي لم تتركني لحالي أبدا ولا يكفون عن التندر والتنمر عليّ، حين ولدت فزعت قابلة القرية رغم أن أمي ولدت ذكرا وهي كعادتها تطلق الزغاريد عندما تري المولود كذلك، لكنها فزعت عندما أرادت أن تحملني من ساقيَّ معلقا لأسفل فرأت واحدة مكتملة النمو والأخرى صغيرة جدا غير مكتملة النمو، صرخت وتركت أمي دون أن تأخذ أجرا وكأن أمي قد ولدت مسخا. يومها دعت عليّ جدتي أن أموت لكنه لم يحدث.

عايرني أقراني بعد أن كبرت قليلا يجرون ورائي يضحكون ويتندرون وأنا أجري أمامهم أميل على الجانبين، أمسك قدمي الصغيرة بيدي أستند عليها وأنقلها معتدلا على السليمة، أميل على الجانبين فيجرون خلفي يغنون ويصرخون "أبو رجل ونص."

لم تسلم قدمي حتى من الشيخ " محفوظ" الذي يحفظني القرآن فإذا أخطات أو شردت نظر إلي ساقي الصغيرة وقال "إنطق يا ربيب إبليس"، أكاد أسمع السيدات وأنا أمر أمامهم يخوفون أطفالهم بي فإذا فعلت كذا سأحضر لك ابو رجل ونص، أو يخوفونهم إذا أغضبوهم أن ينزل عليهم سخط الرب فيصبحوا مثلي.

وحين تجرأت وتقدمت لخطبة فتاة ضحك أبوها بعد أن عرف مقصدي من زيارتهم، اعتدل في جلسته التي كان قد انفرط على جنبه من الضحك وقال "ليس عندنا بنات للزواج" وكان مهذبا بقدر لم يتم فيه جملته بكلمة "لمثلك."

بعد أن قرأت على المقابر في ذلك اليوم، انتظرت انصراف الناس إلى بيوتهم ولم أنصرف، جلست بالمقابر حتى تأكدت من خلو المقابر وأنه قد حان وقت الصلاة. كنت أقف أمام الجرن الكبير، أخرجت عود ثقاب حككته بجانب العلبة مرات حتى اشتعل، أمسكت به في يدي أنظر إليه تمسك النار فيه قبل أن أقذفه على الجرن ووقفت.

كنت أسمع طقطقة النار وهسيسها، تعلو وتعلو وأنا أبتهج أنظر إلى الجرن وقد خرج الدخان من أحشائه يعلو في السماء يرسم ماردا عظيما. بجناحين كبيرين يكادان يطبقان على القرية وقد غيب الدخان الشمس وراءه فخفت نورها، ركبت حماري القصير، أنزل من التلة الصغيرة بجوار المقابر، بينما خرج الناس من الصلاة فلم يخف عليهم هول النار من دخانها وصوتها، خرجوا يجرون، يهرولون، تصرخ النساء ويبكي الأطفال، يكبر الرجال ومن لم يتمالك أمره منهم بكي وولول كالحريم.

أنزل من التلة، أسير عكس اتجاههم، هم في صعود وأنا في نزول، لم يلتفتوا إلى كعادتهم ولم يلحظوني، حتى الخفر وشيخهم انقسموا فريقين حين مررت بهم عن يميني وشمالي ولم يلتفتوا لي أيضا، اجتمعوا على

بعضهم بعد أن مررت من بينهم وأكملوا صعودهم وصراخهم في الناس ليفسحوا الطريق للعمدة وركبه.

كنت قد انتهيت من جموع الناس وحين وصلت إلى السفح نظرت إلى مندرة العمدة في أعلى التلة المقابلة، خبطت حماري بكعبي في جانبيه أحثه على الصعود، في طريقي للقاعة الكبيرة لأقرأ سورة يس كعادتي بعد صلاة كل جمعه.

.

عزيزة

وأنا في طريقي مررت بجوار الحوض الكبير، خلع طفل ملابسه وألقى بنفسه في الماء، جسده النحاسي اختفي برهة ثم شهق وظهر عاريا، الشمس في ظهره يزيح الماء من على رأسه يتصاعد الدخان من جسده ورأسه المبلل بالمياه وكأنه إله إغريقي يخرج من وسط الدخان لأتباعه، ثم جلس القرفصاء كما أجلس أمامك يا عزيزة بلا خجل، تتعهد يداك كل جسدي تصبين الماء على رأسي وأنت تغنين.

حين وصلت، نزلت من فوق الحمار أمسك المنشار الذي صنعته أنا وأنت أتذكرين؟ ذلك المنشار المربع الذي أزلت من عليه الصدأ البارحة لكنني نسيت أن أشد حبله المصنوع من ليف النخيل. أذكر يومها يا عزيزة جلست ألصق باطني قدمي بقدميك نفتل ذلك الحبل الذي لم يرتخ من يومها.

صاح أحدهم: تأخرت يا يونس

: تأخرت !!

عاتبوني على التأخير مثلما كنت تعاتبينني إن تأخرت حتى لو كنت في العمل، تخافين علي وكأنني طفل صغير، أنا لم أتأخر عنهم بل هم من تأخروا كثيرا، سبع سنوات منذ أن بدأت تغور مياه العيون التي كانت تجري بأمر الله دون جهد، وانا !! أنا الذي كنت أقسِّم الخير بينهم أوزعه بالعدل حين كانت العيون تجري، يداي البيضاء تعطي لكل واحد منهم حقه من غير زيادة أو نقصان، أضع سدا خشبيا في مجرى الماء المتدفق، أزنه حتى لا يميل، ثم أصنع فيه فتحات لكل واحد على حسب حصته من المياه.

يجلسون تحت شجرة السنط العجوز في جمع كبير يضعون الخشبة أمامهم، رغم أني أعرف أنها آخر عين جار وأنها ربما تكون أخر مرة، حملت منشاري، أقبلت عليهم في زهو وتبختر، لكني لم أكن كذلك يوما معك يا عزيزة، أصبح طفلا أمام عينيك، فتبتسمين إبتسامة أعرفها عندما ترين عينيّ ترقص في محجريهما أتفحصك وأنت تمرين أمامي.

في الظهيرة جلسنا تحت الشجرة الكبيرة نتناول الغذاء، نظر إليّ ذلك الرجل الذي دعاني إلى لقائه البارحة نظرة غضب، كان يريد أن يميل منشاري قليلا لتتسع الفتحة التي تخصه فتزيد حصته من المياه، لو كنت

أعرف يا عزيزة ما قبلت دعوته على العشاء وما تأخرت البارحة وما كنت سبقتني إلى النوم.

بعد الغذاء عدنا إلى العمل، وضعت الخشبة بين أقدامي المفرودة وأقدام الرجل الجالس أمامي يمسك كل واحد فينا طرفا نتبادل القرب والابتعاد من الخشبة بينما تعمل المنشار فيها، لأول مرة يرتخي الحبل فتنحشر المنشار، أعدت رباطه وشددته ثم تابعت.

مرت بجوارنا سيدة تمتطي حمارها في الطريق، انحسر رداؤها عن ساقها فظهر خلخالها، لكم أحب أن أرى ساقيك البضتين والخلخال يخصر كاحلك يا عزيزة، لا أعرف أيهما يزين الآخر. عندما قاربت الشمس على الغروب كنت قد انتهيت من صنعت الفتحات لكل واحد منهم على قدر حصته من المياه وصنع كل واحد منهم قناة صغيرة بالطين تقود الماء بقدر حصته إلى أرضه.

وقفت أنظر إلي شمس الأصيل تلون الغيوم بالأحمر قبل أن أسمع همهماتهم تتوقف من خلفي، ثم وقف أمامي أحدهم، ربت على كتفي ووضع النقود في جيبي تبسمت فقط ولم أنبس.

كان حماري قد ملّ الوقوف فاستراح راقدا تحت ظل السنطة، لكزته فوقف، قدته نحو حجر كبير ركبت من فوقه، خبطت جانبيّ بطنه بكعبي فتحرك، ضربته على مؤخرته استحثه على الجري، خفت أن تغرب الشمس وأتأخر، أنا الآن في طريقي إليك يا عزيزة.

علامة جديدة على حائط المطحن

طار قلبه فرحا عندما رأى أباها لعلمه أن أنها ستأتي في الصباح لتطحن القمح يحدث ذلك كل مرة يأتي فيها هذا الرجل إلى المكان.

فسحة أرض كبيرة في آخر زقاق ضيق متفرع من الشارع الكبير. على أحد جانبيها بيت قديم من طابق واحد في مقابلة مطحن أمامه مصطبة حجرية وحفرة بها بقايا نار ودخان، بينما تنساب قناة ماء تجري إلى الأرض المجاورة لكي ترويها. في هذه الليلة وعلى المصطبة الحجرية جلس صاحب المطحن وصديقه يدخنون الشيشة، يختفي دخانها ويتلاشى في الظلام. لا يقطع صمت الليل في الزقاق سوى قرقرات الشيشة وسعالهما، وخشخشة العرجون الذي يكنس به صبي الأرض.

الصبي اليتيم الذي آواه صاحب المطحن بعد وفاة والديه وصار المطحن بيته ومكان عمله. يقضي ليله على السرير الذي بناه بداخله من الطوب بعد أن ينتهي من عمله. بعد أن انصرف صاحب المطحن والرجل، لم ينم باكرا كعادته في مثل هذه الليالي يظل يفكر فيها وعلى أثر الضوء الشحيح القادم من كوة ينظر إلى الحائط المقابل يتحسس ببصره العلامات التي يضعها بعد كل مرة تأتي إليه.

تشاركه ليلته، صامتة كعادتها، لكنها هذه المرة اقتربت منه، سرح في عينيها السوداوين الواسعتين وفمها الصغير وذقنها المسنون وتنهد، تجرأ وأمسك يدها وشدها إليه، كان ذلك كفيلا بأن يشعل جذوته، إلى أن أيقظته طرقات على الباب فاستفاق من نومه، اعتدل وهو يفرك عينيه، ثم جرى ليفتح الباب.

كانت واقفة بالخارج، ابتسمت في خجل وكأنها تلومه على ما حدث في الحلم، وقف طويلا ينظر إليها ويبتسم وعندما أدرك أنه أطال الوقوف هرول إلى الحمار ينزل جوال القمح من عليه وجرى إلى الداخل، فتح الجوال وأفرغ القمح في حوض الماكينة الكبير، ثم رفع مقبس الكهرباء ففرقعت تروس الماكينة وبدأت العمل مصدرة ضجيجا كثيرا.

كان يدور حول الماكينة ويدور حولها يختلس النظر إليها بين برهة وأخرى بينما وقفت هي في ركن تنظر إلى الأرض تعلم أنه ينظر إليها يتفحصها فتزداد خجلا ويزداد وجهها احمرارا وتوردا.

كانت نحلة صغيرة تطير وتدور ثم تحط على الدقيق، تكرر ذلك مرات حتى تمتلئ قدماها بغبار الطحين بينما كان دبور كبير يطير حولها وخلفها متحفزا منتظرا الفرصة للانقضاض عليها. ارتفع صوت ماكينة الطحين فعرف أنها قد شارفت على الانتهاء ولم يعد فيها سوى ما تبقي في أركانها، مال على الأرض وأمسك خشبة يطرق بها على الماكينة حتى يُنزِل القمح إلى منتصفها لتتم الطحين.

كان ذلك كفيلا بأن تطير النحلة مفزوعة في اللحظة التي همّ الدبور بالهجوم عليها فأخطأها لينغمس في الدقيق، وقف على الأرض يخلص قرونه وجناحيه بأقدامه من الدقيق بينما طارت النحلة مبتعدة، طرق مرة أخرى فأفاقت الفتاة من شرودها في بقعة رطبة على سرواله من الأمام، أنزل المقبس فتوقفت الماكينة عن العمل بينما لا يزال صوتها في أذنيه يطِنُّ عاليا.كان الوقت قصيرا أو هكذا شعر به، بحث عن حبل صغير يربط به جوال الدقيق.

أسرعت تحمل معه الجوال فتسارعت دقات قلبه كلما اقتربت، وضعا الجوال على الحمار، قبل أن تنتبه إلى اتساخ جلبابها من أثر غبار الدقيق، أخذت تنفضه بيديها وكلما نفضت تركت يداها علامة أكبر على جلبابها، نظرت إليه وابتسمت، فابتسم.

توقفت عن نفض جلبابها، ثم نظرت إليه مودعة وانصرفت. في مدخل المطحن، وقف مستندا بيديه على جانبي الباب ومطرقا برأسه إلى الخارج ينظر إلى مشيتها الوئيدة في جلبابها الأزرق، تسند جوال الطحين على الحمار وتمشي بجانبه، تنهد طويلا حينما خطت آخر خطوتين في الزقاق الضيق قبل أن تختفي في الشارع الكبير، دخل ليزيد العلامات على الحائط بجوار الباب واحدة جديدة.

ليلة عيد

أيقظتني والدتي مبكرا، خرجتُ إلى صالة البيت فوجدتها قد ذهبت لتستحم بينما وقف والدي متعطرا في جلبابه الأبيض في طريقه إلى الصلاة. فتحت التلفاز وجلست في انتظار أمي حتى تنتهي.

على الشاشة كانت جلبة وصياح، رجال في قاعة كبيرة يصرخون في وجوه بعضهم وفي وجه رجل بلحية غير مهذبه، حاول أحدهم أن يضع قناعا قماشيا على رأسه فرفض، بالكاد تهجيت الأحرف المكتوبة أسفل الشاشة كانت مح.. محا... محاكمة .. الر... الرئيس... العر... العراقي.

بالأمس استيقظت على صوت التلفاز، رائحة البخور تملأ المكان وينتقل المشهد في التلفاز من الكعبة للحجيج لشيخ كفيف على منبر مبحوح الصوت بالكاد أميز من كلامه بضع كلمات غير أن صوته يضفي على المشهد رهبة وجلالاً.

أبي يجلس على الدرجات المطلة على الفناء الداخلي للبيت، يسند فخذا على الأرض ويجعل الآخر قائما، بجواره فرشاة لحلاقة الذقن وصابونة

وموسى قد استراح في جرابه العاجي وإناء فيه ماء تعلو سطحه رغوة وبقايا شعرٍ، يمسك بيد مستندة على فخذه القائم مرآة واليد الأخرى تمسك مقصا يمررها على حافة شفته العليا يهذب شاربه.

انزوت والدتي في خفة إلى المطبخ لتضع على المزيج الغريب الذي تصنعه بضع قطرات من عصير الليمون ثم عادت لتتم ما بدأته من ترتيب البيت. بعد فتره عادت لتختبر الخليط الذي صنعته، أخرجت شيئا منه وضعته بين أصبعيها السبابة والإبهام فالتصقتا ببعضهما.

ذهبتْ إلى فناء البيت حملت دجاجة لها فشلت في إخراج البيض وذهبت لجارتنا، دخلتا إلى الفناء وضعت أمي طائرها على الأرض وباعدت بين جناحيه بينما أحضرت جارتنا ديكا روميا لها، حين اقبل بدأ يلف ويدور حول أنثاه ينفخ أوداجه وينفش ريشه ويصدر زمجرة وفحيحا ويقترب حتى وضع قدميه على جناحيها فأفلتت أمي ما تمسكه منها ثم أعتلاها، تهامست أمي وجارتها في ضحك رغم أنه لم يكن موجود سواهما ثم انصرفتا.

عندما عادت أمي إلى البيت أطلقت سراح طائرها في الفناء أخذت شيئا مما صنعته والمرآه الصغيرة التي كانت مع أبي، دخلت غرفتها وأغلقت الباب. في الليل حملتني أمي الي الفراش مبكرا بعد أن جهزت لي ملابس جديدة قاستها على ثم خلعتها.

في الصباح كان صوت تكبيرات العيد يعلو من كل مسجد، رفعت صوت التلفاز قليلا، زاد الرجال الموجودون بالقاعة جلبة وصياحا، وقف الرجل الذي رفض أن يرتدي القناع القماشي يردد الشهادتين، بعد ذلك سمع صوت فتح بوابة حديدة أسفله ليسقط في حفرة يتأرجح جسده مشنوقا، تطل رأسه إلى سقف الغرفة.

المزّيّن

في ظهيرة اليوم وقبل أن يعود الرجال من العمل ألبستنا جدتي جلابيب بيضاء أنا وابن عمي والذي يقاربني في السن، طرقات متمهلة على بوابتنا القديمة. أقبلت جدتي تفتح البوابة للطارق ودعته للدخول، رجل ضخم أخفي ضوء النهار المار من البوابة خلف ظهره، يرتدي جلبابا وعليه جاكيت أسود اللون ممسكا في يده حقيبة جلدية سوداء، هو نفس الرجل الذي تكفي نظرة منه لأقدامنا الحافية في الشارع لأن ترتعد فرائصنا ويفر كل منا إلى بيته.

تهللت أسارير الجميع حين رأوا الرجل، وأفلتت زعرودة من عمتي الصغرى قطعتها عندما نظرت إليها جدتي بغضب، دون أن ينطق أشار بعينيه إليَّ، وضعت جدتي ماجور العجين ووضعت فوقه محرمة بيضاء، انهمك الرجل وهو يخرج كيس البن والموسى من حقيبته بينما حملتني أمي من ذراعي وأرقدتني على الماجور المقلوب.

وقف الرجل عند رأسي، كنت أنظر إلى وجهه وأنا نائم على ظهري، ملامح صارمة لا تهتم بالنساء ولا همهماتهم، شارب صغير مهذب وفتحتي أنف كبيرتين وذقن مسنونة، وقفت بجواره والدتي بينما وقفت

جدتي عند رجلي لتحول بيني وبين المتلصصين بالنظر من الجمع يقتلهم الفضول، أمسكت ساقيّ وساعديّ بقوة، وفتحت فخذيّ عن آخرهما، عرى الرجل نصفي الأسفل، نظرت جدتي إلي ما انكشف مني، ابتسمت ثم رفعت رأسها ناظرة إلي أمي نظرة فهمتها الأخيرة فأحمر وجهها خجلا.

في بادئ الأمر لم يكن هناك ما يؤلمني، مستغربا فقط ما يحدث، فجأة يد تتحسسني ثم شئ حاد يخترق جسدي يمر من خلالي، وسائل دافئ يبللني، صرخت ثم بكيت حاولت التخلص من قبضة جدتي ففشلت، تبولت على جسدي وذراعي جدتي وملابسها، ضحكت حتى اهتز جسدها النحيل ثم زغردت.

من حقيبته أخرج الرجل خرقة قديمة شق طرفها طوليا ضمد بها الجرح بعد أن كبسه بالبن ثم ربط آخر الخرقة، أطلقت جدتي سراحي فنزلت من على الماجور باكيا ناظرا إلى المحرمة البيضاء التي امتلأت بدمي. هرولت جارة لنا لا تنجب، التقطت الجلدة الساقطة مني ومررت خلالها خيطا، صنعت منه عقدا خبأته وسط ثدييها الكبيرين.

احتضنتني أمي ضاحكة مزغردة وأجلستني في حجرها بينما أشار الرجل بعينه إلى ابن عمي فحملوه حيث كنت، فرغ الرجل من عمله، لملم حقيبته وحاجياته بعد أن مسح أطرافها المغطاة بالدم. وضعت جدتي يدها في جيبها أخرجت جنيها ورقيا كاملا وضعته في جيبه العلوي، وكيسا به خمس بيضات، أخبرته بما فيه حتى لا ينكسر. قبل أن ينصرف متجهما من حيث أتى.

ملك وكتّابة

يضعني على ظفر إبهامه الأيمن، ثم يرفُّني عالياً ويلتقطني في راحة يده، يغلقها ثم يصرخ: ملِك، بينما يمشي أَخوه بجواره يقول في هدوء: كتابة، يفتح يده وفي كل مرة يجدني كما قال أخوه فيعيدني إلى جيب بنطاله.

لم يفلح جيبه المثقوب في الاحتفاظ بي أكثر من مرة. يبحث عنِّي في كل مرة يفقدني لكنني أكون قد اختفيت.

يذهب هو وأخوه للعب "البلي" مع بعض الرفقاء، يقلِّبون وجوههم في الأرض، يقفزون كالضفادع على سيقانهم المثنية، تتعلق أعينهم بكرات البلي وهي تدور حول حفرة بالأرض قبل أن تسقط بها كبلية القمار، بينما هو يدور ببصره في المكان وحوله يفتش عني ولا يجدني.

في طريق عودتهما يرجع مُفلساً بلا نقود وبلا كرة بلي واحدة، لا يرفع رأسه عن الأرض يبحث عن ضالته بينما أخوه تمتلئ جيوبه بالنقود والبلي، يدندن محدقاً في الأفق.

لكن تكفي نظرة واحدة من أخيه للأرض ليرى شيئاً لامعاً من بعيد، يتقدم خطوتين ثم يركل التراب بحذاءٍ مهترئٍ ليظهر جزء منِّي فينحني بكل فرح يلتقطني ويزيل التراب من علَّ، بينما فشلت كل محاولاته بإقناع أخيه أني قد سقطت من جيبه المثقوب.

يجري أخوه إلى البائع فرحا يدفعني إليه ويأخذ قرطاسا من الآيس كريم بينما ينتظره بالخارج ضجرا، يأتي أخوه مهرولا يقتسم القرطاس معه قضمة و قضمة، يفكر هل كان سيفعل كذلك لو كان مكان أخيه؟ كبر هو وأخوه الذي لم يكف يوماً عن الدندنة متطلعاً إلى الأفق، بينما فشلت كل محاولاته في رفع رأسه عن الأرض بحثا عنِّي.

في طريق عودته من العمل مساء توقف أمام بائع الجرائد، اشتري جريدة "الغد" وفي الشارع تحت ضوء مرتعش لعمود الإنارة رأى شيئاً يلمع تحت التراب، ركل التراب بقدمه، ظهر طرفي فطار قلبه فرحا، التقطني ومسح التراب من علَّ وجرى كطفل صغير يقذفني بظافر إبهامه لأعلى.

هذه المرة لم يضعني في جيبه، جرى إلي البائع أخرج نقودا ورقية من محفظته، ابتاع قرطاسا من الآيس كريم وأخذ يتلذذ بأكله، . وصل إلى البيت وهو لا يزال يقذفني ويلتقطني فتح الجريدة ليقرأ العناوين الرئيسة قبل أن ينام. كان الخبر يتصدر إحدى الصفحات:

(وقف التعامل بالعملات المعدنية ابتداء من الشهر القادم)

أغلق الجريدة، قذفني لفوق حتى استقررت براحة يده، همس بصوت خافت: ملِك قهقه بصوت عال عندما فتح يده ليجد نفسه قد أصاب هذه المرة.

عرق البلح

نشأت يتيم الأم لأب كان يعمل إسكافيا فيما مضى، قدم إلى البلدة نصرانيا هاربا من اضطهاد أهل بلدته ليعلن إسلامه ويتزوج من أمي ويدخل مع الجميع في دائرة اضطهاد الكبار والواحة القاسية. ورثت عن أمي بضع نخلات بأطراف البلدة نتقاسم أكل إنتاجها نحن والدواب.

دائما ما أرعى غنيمات عجفاوات لنا وأحلبها فتزداد ضعفا على ضعف، لنشرب لبنها ونصنع منه جبنا إن فاض منه شيء الواحة جافة ومظلمة، تعرفها الحرائق أكثر ما تعرفها الأمطار، تزورها الحرائق كل صيف فتأكل منها ما تأكله ولا تتوقف إلى أن ينضب ما تطوله.

يحاصر الجفاف سكنى العامة والعاملين باليومية على أطرافها، تجف الثمار على الشجر هذا إن أثمرت أصلا، يتساقط أطفالهم من الجفاف والأمراض، بينما يزداد كبار البلدة و إبلهم وأغنامهم سمنة وارتواء، حتى النخيل ارتوي منه ما نبت في وسط الواحة فأخرج رطبا بينما أخرج ما في أطرافها حشفا لا يصلح إلا لأكل الماشية والدواب.

يعمل الجميع عند وجهاء القرية، ثلاث عائلات يتقاسمون الأرض القريبة من الماء، يتناوبون الشرب منها والري يومين لكل عائلة ويبقي لبقية أهل البلدة يوما يملأون فيه قرابهم وأزيارهم ويروون أرضهم إن كان لهم أرض. الكل يعمل مقابل قروش قليلة ومن تمنع عن العمل منعت عنه المؤن والماء وترك لقدره يأكل ورق الشجر كما تأكل البهائم، حتى أبي يعمل في أرض الكبار كباقي البلدة بينما أنا لا أعمل، لا أطيق أن أعيش تحت أمرتهم. في يوم الروية أملأ قرابنا لأملأ أزيارنا، مالت القربة مني لينسكب الماء على بلح في قصعة فأهملته، لم نكن لنأكل منه. مر أسبوع حتى كان يوم الروية الجديد وأنا أملا الأزيار اقتربت من القصعة فوجدت البلح قد تخمر وعلته رغوة كثيفه ورائحة نفاذة لم تكن بأقوى من صنان أغنامي.

تذوقته كان لاذعا لكنني استسغته، رفعت البلح وصفيت الماء منه ثم شربت، وكلما قلت اكتفيت وجدتني أشرب المزيد حتى طاح عقلي، وحملني خيالي لمشاهد ما تجرأت حتى على تخيلها وأنا صحيح العقل، فرأيتني أملك البلدة كلها، تتناوب عائلات الكبار في العمل تحت إمرتي، وأنا أمر عليهم أجلد ظهورهم وعندما يأتي المساء أضاجع نساءهم ولا أكتفي فأضاجع صبيانهم.

اختمر الموضوع في رأسي كما اختمرت التمور في القدر، كررت الموضوع مرات ومرات فأصبحت أكثر تمرسا. أنقع البلح لأيام ثم أقطره بعد أن يتخمر لأصنع شرابا سحريا يحملني كل مره لبلد جديد، أسافر وأنا لم أركب دابة قط أطير كعصفور فألامس السحاب وأنا لم تصعد أغنامي تلة أو جبلا قبل.

غضب أبي كلما رآني مترنحا ونهرني كلما اشتم رائحة فمي العطنة، لكنه لم يستطع إيقافي عما أصنع. ظللت لعامين أشرب كل يوم، أهملت صلاتي وشردت بعض أغنامي ومات الباقي، لم أهتم بتلقيح النخلات فلم تثمر غير شيصٍ وحشفٍ تأنف الدواب حتي أن تأكله، لكن شرابي السحري لم يكن يفرق بين هذا وتلك، تبقى العلة في التخمر فكلما زادت رداءة البلح ازددت أنا سكرا من مشروبه.

حتى كان الصيف وثقلت عراجين البلح بتمر يكفي شرابه لعام كامل، لم يبق من الأرض المجدبة ما تأكله النار إلا سيقانا البرسيم والقمح التي جفت من سنين. وبعض نخلات تقاوم القيظ والعطش.

جاء موسم الحرائق واشتعلت النار في أطراف القرية لتتم عمل كل عام حتى اقتربت من نخلاتي، كبيرة صفراء لا تبقي ولا تذر، ينظر إليها الجميع بإكبار لا يلوون على شيء فلم يكن لديهم ما يخسرونه، ولا يوجد لديهم ماء لإطفائها ينتظرون فقط أن تشبع لتخمد. اقتربت النار من نخلاتي فأوشك قلبي أن ينخلع، هل تسبق النار يدىّ إلى الثمار، حتى أمسكت في نخلة منها، تقافزت الفئران هربا من النار تشتعل أذيالها وأوبارها فتقفز من جريدة سعف لأخرى ومن نخلة للتي بجوارها تحمل النار معها حتى اشتعلت كلها.

كنت أقف لأول مرة منذ عامين مكتمل الوعي والإرادة، أنظر لذلك المخلوق المهيب، يقف أبي بجواري لا ينطق، تعلو النار في السماء وتكبر فترتفع أشداقنا لنرى أطرافها، ويلفحنا لهيبها فيرجع الجمع إلى الوراء بينما أنا لم أرجع، اقتربت أكثر، سمعت همهمات لم يكن منها لأبي شيء، أقترب فلا أسمع صوت أحد ولا حتى صوت النار، أدخل بين ألسنتها أمشي وأمشي نحو نخلاتي.

نافذة فوق آخر درجات السلم

لأول مرة منذ سنوات أمرُ الآن أمام بوابة الجدة فلا تكون جالسة بمكانها. خط أزرق بمنتصف الذقن يتوسط نقطتين لم تنجح عوامل الزمن ولون البشرة الأسمر في إخفائها، ذلك الوجه الصغير المزين بالوشم يحمل ملامح بها الكثير من الألفة والود، تضع قرطا ذهبيا كبيرا والذي يبدو وكأنه يشدها إلى الأرض فصنع شجا كبيرا بشحمتي أذنيها، ضفيرتان فضيتان صغيرتان تطلان من أسفل وشاحها الأسود، خلخال فضي كبير تضعه دائما أعلى كاحلها الأيمن تحول كأنه قطعة من جسدها.

اعتادت الجدة نفيسة -أو هكذا اعتدنا أن نسميها أنا وزملائي في المدرسة الابتدائية-أن تجلس بمدخل بيتها القديم خلف بوابة خشبية كبيرة مفتوحة دائما، ما إن تمر خلالها وتبدو لك الجدة تجلس القرفصاء على الأرض بجوار آنيتين فخاريتين مملوءتين بالماء، فوقها مصباح كهربائي أصفر بالكاد يضيء، غير أن كوة في سقف البيت كانت تعامد الشمس على وجهها في منتصف الظهيرة.

اعتدت أنا وزملائي أن نذهب إلى الجدة بعد كل يوم دراسي نعطيها ما تبقى معنا من الخبز. كانت تجمع كل هذا الخبز لتضعه في الماء لدجاجها. تدس يدها تحت ركبتها لتخرج كيسا قماشيا أبيض اللون، ثم تصنع قرطاسا ورقيا من كتاب مدرسي قديم وتملؤه بحبات القمح التي لفحتها النار واختلطت بحبات القرطم. أمسك القرطاس وأفرغ بضع حبيبات قليلة منه في فمي مستمتعا بطعم المزيج الغريب الذي تصنعه الجدة كل صباح. أقلل الكمية في كل مرة حتى لا تنفذ سريعا.

دائما يلازمها ذكر من البط أبيض الريش. طوال سنوات دراستي لم يكبر حجمه يوما ولم تتطاول يدها عليه لتذبحه، كنت أراه روحا طيبة تؤنسها وتأكد لي ذلك حين دخلت مرة فوجدتها تحادثه بينما يجلس باهتمام يستمع إلى حديثها بعينين يملؤهما الشغف.

وعند ظهور أي منا، يقف ترحيبا بالضيف الذي قطع حديثهم، يمشي بضع خطوات يهز ذيله فيها ثم يحك ضهره بمنقاره قبل أن يعود إلى جوارها.

تعرِف كلا منا بوالدته، وبعد أن تسأل عن جداتنا، تترحم على الحيِ والميتِ، وإذا سمعت نهيق الحمار، نباح الكلب، نعيق الغراب. استعاذت بالله ثلاثا ثم قالت: (يا رب نخرج منها على خير).

في مقابل مدخل البيت سلم خشبي غريب عالي الدرجات، في آخره نافذة تبهر عينيك بضوء النهار. هذه المرة أعطيت للجدة كيسا مملوءا ببواقي الخبز فلم تدس يدها كعادتها تحت ركبتها، أعطتني يومها نقودا، ثم طلبت مني أن أنتظر وقامت لتصعد السلم.

رغم أني كنت أسمع صوت أنين مفاصلها مع كل درجة تصعدها إلا أن قدميها كانتا تعرفان موضعها، بالكاد تلامس الدرج كأنها تطير.

مر وقت طويل، تخدلت قدماي فجلست أنتظرها. أقف الآن على الناحية الأخرى من الشارع لأرى عند مدخل البيت رجل ثلاثيني يقف وظهره للباب يحدق في النور القادم من فوق آخر درجات السلم ثم يخطو خطوتين للأمام ويعود لمكانه وكأنه متردد هل يصعد الدرجات بعد أن طال انتظاره أم أنه يجب عليه أن يرحل.

التعريف بالكاتب

أحمد حسن جمعة من مواليد محافظة الوادي الجديد، بالأخص واحة الداخلة قرية الراشدة عام ١٩٨٢ م، تعلم بالأزهر في مراحل التعليم المختلفة ثم التحق بكلية الطب جامعة الازهر بالقاهرة ثم بالعمل طبيبا لجراحة العظام وهو عضو عامل بنادي أدب الداخلة، وله مجموعتين قصصتين مطبوعتين

١ -(دليلة) الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٢٠

٢ -(حبة البندق) الصادرة عن دار نشر الادهم ٢٠٢١

بجوار السور وقفت كانت هيئتي الضخمة تجعله قزما بالكاد توازي أعلى نقطة فيه كتفي، من فوقه أتبين مربط الدواب، بقفزة رشيقة كنت تخطيته ثم اختفيت في الظلام، كانت أقدامي تعرف طريقها في البلدة التي حفظت دروبها سعيا وراء قلبي.